الباب الأول

علم النفس الإكلينيكي

تعريفه وتاريخه ومشكلاته

الفصل الأول: علم النفس الإكلينيكي:

تعريفه ونشأته وتطوره في بلاد العالم

ومشكلاته ومستقبله

الفصل الأول

1

علم النفس الإكلينيكي
تعريفه ونشأته وتطوره في بلاد العالم ومشكلاته ومستقبله

تعريف:

يرتبط تعريف علم النفس الإكلينيكي بتعريف علم النفس بوصفه علماً وتكنولوجيا ومهنة، وهذه الجوانب الثلاثة يعتمد كل منها على الجانبين الآخرين في نموه وتقدمه بل في وجوده. ولكي نوضح ذلك نعرض لتعريف والتر بنجهام لكل جانب منها(25): (*) **يعرف علم النفس عادة بأنه** هو: «العلم الذي يهدف إلى وصف وشرح السلوك، فهو يسعى عن طريق الملاحظة الدقيقة والقياس والتجربة إلى تزويدنا بالمعرفة التي تعين على فهم سلوك الكائنات الحية وبخاصة البشر، وأسباب هذا السلوك».

وعلم النفس بوصفه تكنولوجيا يهدف إلى مهمة أكثر صعوبة، وهي التوصل إلى طرق للتنبؤ عن السلوك وضبطه، فهو بذلك يسهم في تحقيق أهداف الصناعة والتعليم والصحة العقلية والإدارة والحكم والسياسة، الخ.

أما علم النفس بوصفه مهنة، فيمكن تعريفه عن طريق معرفة ما يقوم به الشخص الذي يتخذ علم النفس مهنة، أي: الشخص الذي يكسب عيشه- لا عن طريق تدريس مادة علم النفس، وعن طريق القيام بالبحوث النفسية- ولكن عن طريق مساعدة عملية له مشكلات معينة، سواء كان هذا العميل فرداً مريضاً أو سوياً، أو مؤسسة أو جماعة، وذلك بغرض تحقيق أهداف هذا العميل، وهو في سبيل ذلك، يستخدم الطرق والأساليب والأدوات التي تقدمها السيكوتكنولوجيا من تشخيص وتنبؤ وعلاج.

والواقع أن جانبي العلم والتكنولوجيا في علم النفس قد تقدما معاً، وربما كان ذلك عن طريق شخص واحد. فمثلاً، حاول كاتل - وقد تأثر بجالتون- أن يطبق الأدوات والوسائل التي شغل بها ثورنديك وغيره في دراسة الفروق الفردية، وأن يطبقها في الصناعة والتعليم والمهن. كما أن ويتمر وهو عالم لامع وضع الهيكل العام لما نعرفه اليوم باسم العيادة السيكولوجية، ولم يقنع بيير جانيه ببحث الشذوذ ولكنه أسهم في تقدم العلاج النفسي. ومن الواضح بالطبع، أن الشخص

(*) يشير الرقم بين القوسين إلى رقم المرجع والصفحة في قائمة المراجع.

الذي يتخذ علم النفس مهنة، والذي يستخدم الطرق والأدوات التي تبتكرها السيكوتكنولوجيا، هذا الشخص يجب أن يكون متعمقاً أيضاً -في علم النفس بوصفه علماً، وكذلك فإن البحث عن حل لمشكلة عملية يمكن أن يزيد في رصيد علم النفس بوصفه علماً، والعكس صحيح. وواقع الأمر أن النسبة الغالبة من المشتغلين بعلم النفس يجمعون بين التدريس والبحوث والسيكوتكنولوجيا والممارسة المهنية، بل إن الإعداد الأكاديمي في المعمل وفي البحوث جزء أساسي في إعداد الأخصائي النفسي الإكلينيكي بجانب إعداده المهني.

ولقد كان من الضروري أن نبدأ بهذه المقدمة لكي نمهد الطريق لتوضيح دلالات الترابط والتداخل بين العلم والتكنولوجيا والمهنة في تعريفنا لعلم النفس الإكلينيكي: أسساً وطريقة ونظرية وممارسة. وهو تعريف يختلف أحياناً باختلاف الإطار المرجعي للقائم بالتعريف. فمثلاً، نجد أن بعض الدوائر وبخاصة الطبية منها، تفضل أن يقتصر تداول كلمة (إكلينيكي) على النشاط الطبي. وكلمة (كلينيكي) مشتقة في الأصل من كلمة يونانية تشير إلى معنى (بجوار سرير المريض) ثم امتد استخدامها إلى دراسة الفرد كفرد، أي: فحص وعلاج المريض كفرد على أساس أعراضه، وليس على أساس أن هذا المريض مثال لحالة من الحالات التي تصفها المراجع. ونجد اليوم أن كلمة (Clinic) أي: «عيادة» قد اكتسب معاني مختلفة، ومنها مثلاً: العيادة الخارجية مقابل الإقامة في مستشفى. كذلك ينتشر بين بعض الدوائر الطبية تعريف آخر لعلم النفس الإكلينيكي ينكره المشتغلون به، لأنه يعادل بين الممارسة الإكلينيكية والقياس السيكولوجي، ويرى فريق ثالث أن عالم النفس الإكلينيكي يتناول فقط المرضى والشواذ.

وبالرغم من هذه التعاريف لا تكاد تتجاوز قيمتها اليوم دلالتها التاريخية، إلا أنها تركت بصمات على العلاقات بين مختلف الأخصائيين الذين يتعاملون مع العميل، ولذلك فإن فهمها وتتبع أصولها ضروري لفهم مشكلات الحاضر. وفي تعريف علم النفس الإكلينيكي من جانب السيكولوجيين أنفسهم، نورد على سبيل المثال تعريف جارفيلد (60، ص125) : "علم النفس الإكلينيكي هو ذلك الفرع من علم النفس الذي يهتم بمشكلات توافق الشخصية وتعديلها". وفي هذا التعريف العام، يؤكد **جارفيلد** أن الأخصائي النفسي الإكلينيكي هو أولاً وقبل كل شيء عالم نفس، يحتفظ بولائه لعلم النفس الذي يتلقى إعداده فيه ويلتزم بقيمه الأساسية ومنها القيم المرتبطة بالبحث العلمي، ولو أنه يتخصص في علم النفس الإكلينيكي ويتلقى التدريبات العملية الضرورية في المواقف الإكلينيكية. ويمكن القول: إن علم النفس الإكلينيكي هو علم ومهنة في وقت واحد، وهو أمر قد يختلف بعض الشيء عن عدد من المهن مثل الطب والخدمة الاجتماعية، حيث يعد العامل فيهما ليكون في الأساس ممارساً، بل إن الطب يميز بين العلوم الأساسية وبين الممارسة الإكلينيكية. وإذا كان بعض الأخصائيين النفسيين الإكلينيكيين يركزون كل اهتمامهم في العمل الإكلينيكي، بينما يركز البعض الآخر جهودهم في البحوث أو في التدريس، فإنهم جميعاً ينتمون إلى المهن النفسية، ويتعين أن يثبتوا جدارتهم في البحث العلمي.

وفي عام 1947، **كونت** الجمعية النفسية الأمريكية لجنة برئاسة شاكو لتقديم توصياتها فيما يتعلق بالدراسات العليا والتدريب في علم النفس الإكلينيكي، وهي التوصيات التي أصبحت نبراساً تهتدي به الجامعات الأمريكية في تخطيط برامجها ومعياراً لتقويم هذه البرامج، وذلك بالرغم مما يدور حولها من جدل متصل حتى اليوم. وقد عرفت هذه اللجنة علم النفس الإكلينيكي بأنه: "طريقة لاكتساب المعرفة المنظمة بالشخصية الإنسانية ولإعداد الطرق لاستخدام هذه المعرفة لتحسين الحالة العقلية للفرد". (140). ومن الواضح أن اللجنة تؤكد على الجانبين العلمي والمهني في علم النفس الإكلينيكي، وهي تعتبر أن تدريب الأخصائي في هذا الميدان يجب أن يكتمل في مجالات ثلاثة أساسية هي: التشخيص والعلاج والبحث، بحيث أن النقص في ميدان منها يؤدي إلى الانتقاص من فعالية أداء الأخصائي النفسي الإكلينيكي لوظيفته. ومن الجدير بالذكر أن الكثير من الجدل يدور هذه الأيام في الولايات المتحدة الأمريكية حول صواب قيام عدد من المعاهد أو المدارس المهنية الخالصة التي تهدف إلى تخريج سيكولوجيين مهنيين وإلى منح درجات مهنية. وسوف نعود إلى مناقشة هذا الموضوع في فقرة تالية.

ونحن من جانبنا سوف نلتزم في عرضنا لموضوعات الكتاب بتعريف إجرائي لعلم النفس الإكلينيكي، وهو أنه في الأساس تطبيق للطريقة الإكلينيكية: تشخيصاً وتنبؤاً وعلاجاً. أي: إن الأخصائي النفسي الإكلينيكي هو الذي يستخدم الأسس والتكنيكات والطرق والإجراءات السيكولوجية، والذي يتعاون -كلما اقتضى الأمر ذلك- مع غيره من الأخصائيين في الفريق الإكلينيكي مثل الطبيب والأخصائي الاجتماعي وغيرهما، كل في حدود إعداده وتدريبه وإمكانياته وفي إطار من التفاعل الإيجابي، بقصد فهم ديناميات شخصية العميل وتشخيص مشكلاته والتنبؤ عن احتمالات تطور حالته ومدى استجابته لمختلف صنوف العلاج ثم العمل على الوصول بالعميل إلى أقصى توافق اجتماعي ذاتي ممكن. وهو من خلال عمله، يسهم في تطوير كل من العلم والممارسة الإكلينيكية عن طريق التفاعل الخلاق بين البحث العلمي والتطبيق العملي. ونحن نرجو أن نزيد هذا التعريف وضوحاً، وأن نلقي الضوء على دلالاته النظرية والعملية من خلال استعراضنا لتاريخ وتطور علم النفس الإكلينيكي، ومن خلال تناولنا لمحور الدراسة في هذا الكتاب، وهو الطريقة الإكلينيكية: أسسها وأدواتها ونظرياتها وتطبيقاتها.

ومن الجدير بالذكر أن **شاكو** (140) في خطاب ألقاه أمام قسم علم النفس الإكلينيكي في الجمعية النفسية الأمريكية، أكد موقفه السابق، ودافع عن نموذجه المختار للأخصائي النفسي الإكلينيكي وهو نموذج " العالم - المهني" أي: الأخصائي الذي يجمع بين دوره بوصفه عالماً ودوره بوصفه ممارساً للمهنة. وهو يؤكد على ضرورة تحقيق التكامل في تدريب الأخصائي بين الممارسة العملية في الميدان والإعداد الأكاديمي في الجامعة، وإكساب الأخصائي الاتجاهات المطلوبة وتوفير نماذج طيبة من المدربين.

خصائص الأخصائي النفسي الإكلينيكي ومناشطه واتجاهاته:

ما هي الأعمال التي يؤديها الأخصائي النفسي الإكلينيكي؟ وفي أي المجالات التي يمارس هذه الأعمال وتحت أي الظروف؟ وما الذي يميزه عن غيره من الأخصائيين من حيث إعداد وتدريبه واتجاهاته؟

تختلف الإجابة عن هذه الأسئلة من بلد لبلد ومن مكان لآخر في البلد نفسه، بل إنها قد تختلف من مدرسة فكرية لأخرى في نفس المكان والزمان. ولنأخذ مثالاً لذلك: الولايات المتحدة الأمريكية التي تضم حوالي 70٪ من الأخصائيين النفسيين في العالم وحوالي 85٪ من حملة الدكتوراه في علم النفس (43، ص، 147). وتضم الجمعية النفسية الأمريكية حوالي مائة ألف عضو موزعين على حوالي 50 قسماً تمثل مختلف فروع واهتمامات ومجالات علم النفس النظرية والتطبيقية. ويحمل درجة الزمالة (وهي أرقى درجة تمنحها الجمعية) من الأعضاء عدد يقل عن عشرة آلاف عضو منهم عضوان مصريان هما: **محمد عماد الدين اسماعيل** (قسم علم النفس العام)، **ولويس كامل مليكه** (قسم علم النفس الإكلينيكي وقسم العلاج النفسي).

وتصدر الجمعية حوالي 25 مجلة في مختلف العلوم النفسية فضلاً عن عشرات الكتب والأدلة كل عام. وتنظم الجمعية مؤتمراً في صيف كل عام يحضره حوالي 15 ألف عضو. وقد احتفلت بعيدها المئوي عام 1992 مع مؤتمرها السنوي في واشنجون العاصمة. وقبل أن نعرض لأهم نتائج البحوث المسحية في هذا المجال. نلاحظ أنه بالإضافة إلى الأنشطة المعروفة تعددت وتنوعت بقدر كبير في الفترة من الستينات حتى التسعينات، أنشطة الأخصائي النفسي الإكلينيكي، فشملت مجالات لم تكن مطروقة ومنها: السياسة العامة للصحة العقلية، علم نفس المجتمع، البحوث التجريبية التي تتناول حالة واحدة، التقييم السلوكي، التقييم النيوروسيكولوجي، الاهتمام بالعلاجات الدوائية، الوقاية الأولية، والتصميمات التجريبية التي تستعين بإحصاء التباين المتعدد.

وتنشر مجلة «الأخصائي النفسي الإكلينيكي» (والتي يصدرها قسم علم النفس الإكلينيكي، القسم رقم 12 بالجمعية النفسية الأمريكية) في أعدادها الفصلية العديد من المسوح المتجددة التي يجريها أعضاء القسم لتبين ملامح التطور في صورة علم النفس الإكليني الأمريكي عاماً بعد عام. ونكتفي بأن نشير إلى نماذج فقط من هذه المسوح لنستخلص منها بعض الدلالات حاضراً ومستقبلاً.

(أ) يوضح مسح قام به **وايلدمان ووايلدمان** (171) عام 1974 بين الإكلينيكيين الذي يشغلون مراكز قيادية في الولايات المتحدة الأمريكية أن هؤلاء القياديين يعتقدن أن " سيطرة الأطباء في مجال العمل تشكل أكبر معوق للتقدم"، ويليها " نقص الاعتمادات المالية" و «نقص الأفراد العاملين، ثم نقص الفهم لقيمة علم النفس» و «نقص السلطة المتاحة للأفراد العاملين في علم